رِحْلَةُ الإمامِ

ابنِ شَيْخِ الحَزَّامِيِّيْن (657 – 711هـ)

مِنَ التَّصَوُّفِ المنْحَرِفِ إلى تَصَوُّفِ أَهْلِ الحَدِيْثِ والأَثَرِ

(كتبها بنفسه)

اعتنى بها

محمد بن عبد الله أحمد

الطبعة الأولى

1426هـ - 2005م

قونية - تركية



بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. أما بعد :

فهذه ترجمة ذاتية للإمام أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن مسعود بن عمر، الواسِطي الحَزَّامي، عماد الدين، أبو العباس ، رحمه الله تعالى.

ولد الإمام في شرقي (واسِط) من أرض العراق، في الحادي عشر من ذي الحجة سنة ستمئة وسبع وخمسين من الهجرة النبوية (11/ 12/ 657هـ) في حِقبة من تاريخ المسلمين عصيبة، اجتمع عليهم فيها عَدُوَّان رئيسان مخرِّبان: الجهلُ بِهَدْي خاتم الأنبياء والرسل محمد ﷺ وسبيله، وهو خراب دينهم، و استيلاء المغول على الأوطان، وهو خراب دنياهم .

أما العدو الأول، فقد فتح المؤلف عَيْنَيه في بيئة صوفية رفاعية منحرفة، قد بَلَغَتِ النَّزْعَة الملامِيَّة القَلَنْدَرِية في كثير من المنتسبين إليها أشد أنواع الإباحة.

وأما العدو الآخر، فقد اكتسحت جيوش المُغْل البلاد، وسقطت بغداد الخلافة، ومُكِّن عملائهم من الطوائف المنحرفة من التصرف في مصائر المسلمين،

وانتشرت المظالم، وتَفَرَّعَت وتَجَذَّرتَ.

نشأ المؤلف في وَسَطٍ مُشْبَعٍ بآثار العدوّ الأول (الجهل بالدين) - إذ كانت الرفاعية وشِيْخَتُها يومئذ سلْماً للمُغْلِ (العدو الثاني) خُفراءَ لهم ، بل كانوا أقرب الطرق الصوفية إليهم بعد القلندرية - وقد حدثنا المؤلف بمهلكات من تلك الآثار، لا يكاد يصدقها القارئ المعاصر، لا أعني المهلكات الشركية المرتكبة في زيارة قبر الرفاعي الكبير، فإنها- على عظم الجرم فيها- مُوْبِقات مشاهدة في أكثر البلاد الإسلامية حتى اليوم، ولكني أعني "حفلات" السماع الصوفية المختلطة، التي تنتهي بـ"إطفاء الشموع" ، و انغماس الحاضرين في سكرة شهوانية كانوا يعمهون في ظلماتها ما امتدَّ بهم ليلهم ، وكانت أخبار هذه "السماعات" من أعظم ما يؤزُّ ضعاف النفوس من المراهقين ذكوراً وإناثاً ، ومن البالغين رجالاً ونساء إلى الانخراط في هذه الطريقة – وأمثالها – لينال كلٌّ حظه منها ، وكل ذلك باسم التصوف والنُّسك!!.

أَبَتْ فطرة المؤلف جميع تلك الموبقات و البدع والخرافات والعقائد الكلامية الزائغة التي لقنها شيوخ الضلالة له مذ كان صغير السنّ، و بدا أنه – حين اشتدَّ عوده- كان يحاكم تلك الخرافات والعقائد في عقله ثم يعرضها على كتاب الله وسنة رسوله، فيجد التضاد بينهما بيّناً، وربما اضطربت نفسه في بعض تلك المحاكمات التي لم يقع على جواب شاف لها، و كان يدرك – برحمة الله له

وتوفيقه – أن الصواب عند غير هؤلاء، فارتحل طالباً للحق والصواب الذي يرضي الله – عزّ وجل – فتَقَلَّبَ في البلاد، وداخَل طوائف عدة، واجتمع بضروب من المتصوفة، فكان يترك الطائفة إثر الطائفة كلما خَبَرَ دَغَلَها، وتبين له عوار مذهبها، إلى أن اهتدى إلى مذهب أهل الحديث(أهل السنة والجماعة)، ولمعت له أنوار شيخ الإسلام ابن تيمية (ت728هـ) [1] – رحمه الله تعالى – الذي امتدح تصوفه، بعد وجدان ابن شيخ الحزاميين للحق المبين عند أهل الحديث، وبخاصة في اعتقادهم في باب الأسماء والصفات .

وهكذا سرى نور الكتاب والسنة، في روحه بالفهم الذي فهمه الرعيل الأول، من أولياء هذه الأمة: أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب، و سائر الصحابة، ومن تبعهم و انتهج سيرتهم – رضي الله عنهم – فكان امتداح شيخ الإسلام له ووصفه إياه بـ" جُنَيد وقته" [2]، إشارة منه إلى أنه مثل الجنيد زهداً وتقوى وانقطاعاً عن الدنيا على وجه لا يخالف السنة، وأن صوفيته صوفية أهل الحديث [3] وعقيدته أثرية كعقيدتهم، يؤكد ذلك قول الإمام الذهبي عنه وقد جالسه مراراً :"كان داعية إلى السنة ومتابعة الآثار"، وقوله:" كان ذا ورع،

(1) هذا تعبير للذهبي –رحمه الله – في متصوف شبيه بصاحبنا الواسطي.

(2) الذيل على طبقات الحنابلة 4/ 380382

(3) انظر بعض إيضاحاته في ذلك في كتابه الصفدية 1/ 268

وإخلاص ومنابذة للاتحادية، وذوي المعقول" [1]، ووصفه لتصنيفاته بأنها :" نافعة في السلوك" [2].

عنوان الكتاب ونسبته إلى المؤلف:

ليس في النسخة الخطية عنوان مسجوع لهذا الكتاب، ويبدو أن المؤلف تخير لرسالته ذلك التعريف الطويل بمحتواها ولم يسمها بما عُهِد من السجعات في عصره، فكان علي أن أختصر من ذلك التعريف، ومما ورد في الكتاب معنى يؤدي الغرض الذي يريده المؤلف، فكان ما عنونته به.

ولم أقف على من صرح بتأليفه شيئاً عن رحلته العقدية هذه، غير أن وقوف الإمام ابن رجب الحنبلي عليها لا يشك فيه، إذ يظهر نقله المعلومات عنها في ترجمته له في "الذيل على طبقات الحنابلة" ظهوراً بيناً، كما أن أسلوب ابن شيخ الحزاميين الخاص به في الكتابة و المشاهد في المطبوع من رسائله عين أسلوبه هنا، وكذا الحال فيما وجدت من كتبه الأخرى المخطوطة .

(1) ذيل تاريخ الإسلام ص 109

(2) معجم الشيوخ 1/ 29

مؤلفاته :

وقفت على نسختين من "مختصر سيرة ابن هشام" له، و أعزم على نشره إنشاء الله تعالى، ورسالة له في النصيحة لأهل الحديث و الأثر، وهي كذلك مما ينشر قريباً بعون الله تعالى وتيسيره، كما ظفرت – بحمد الله عز وجل- على مجوع مجموع يحوي ما يمكن القول: إنه قد اشتمل على أكثر مؤلفات الشيخ، وقد تخيرت ما لم يطبع منها، وهي الآن عند الطابع، وإليك أسماء أكثرها:

1- مفتاح طريق المحبين وباب الإنس برب العالمين.

2-السر المصون في العلم المخزون.

3- ميزان الحق والضلال في تفصيل أحوال النجباء و الأبدال.

4- ميزان الشيوخ.

5- تلقيح الأسرار بلوامع الأنوار للعلماء الأنوار.

6- حياة القلوب وعمارة الأنفاس في سلوك الأذكياء الأكياس.

7- السكر والصحو.

8- عمدة الطلاب من مؤمني أهل الكتاب.

9- البلغة والإقناع في حل شبهة مسألة السماع.

10- لوامع الاسترشاد في الفرق بين التوحيد والإتحاد.

11- لمعة من أشعة النصوص في هتك أستار الفصوص.

12- محمل تلقيح الأفهام في مجمل طبقات الإسلام.

وأما الرسائل والمسائل فهي:

1- رسالة في إثبات الاستواء والفوقية وتنزيه الباري سبحانه عن الحصر والتمثيل والكيفية.

2- رسالة في مراتب المعرفة وهي رسالة البحر المحيط وبعدها دقائق الحقائق.

3- رسالة العقبات و الطوارق والعوارض والطوارئ وسياستها بحكم العلم.

4- رسالة فيها لوائح من قواعد أهل الزيغ والضلال المبطلين ولوائح من قواعد الصادقين.

5- رسالة إلى الشيخ أحمد المغربي المقيم بثغْر طرابلس.

6- رسالة السراجية في الطريقة المنهاجية أرسلها إلى بغداد.

7- مسائل عن الفرق بين كرامة الولي، و(زوكرةَ المزوكر)، وعن الفرق بين الحال الصحيح والحال الفاسد، والفرق و بين الصالح والطالح، والفرق بين

الصديق والزنديق وغيره.

8- مسائل في الوصول إلى الله تعالى بالقلب.

9- مسألة: ما علامة حصول الإيمان في مرتبة علم اليقين ؟

10- مسألة: ما السكينة وما حدّها ؟

11- مسألة: ما علامة العارف ؟

12- مسائل: واضحة لأهل البداية.

13- مسائل في آداب التربية.

14- مسألة في معنى الصلاة.

15- مسألة في قرب المصلي من الله تعالى.

وأما نصائحه ووصاياه:

1- نصيحة أرسلها الشيخ شمس الدين محمد بن شيخ القنطرة.

2- عهدٌ عهده الشيخ إلى سائر محبيه وأصحابه في حياته وبعد مماته.

3- نصيحة أخرى كتبها لإخوانه قريب من وفاته رحمة الله عليه.

4- وصية أوصى بها لبعض المشتغلين بالعلم.

5- وصية أوصى بها الشيخ لبعض قضاة الشام من أصحابه.

وله شرحان على وصية غيره:

1- شرح الإثنى عشر كلمةً التي قالها الجنيد.

2- شرح وصية الشيخ شهاب الدين السهروردي.

وفاته:

توفي في دمشق، في آخر يوم السبت سادس عشري ربيع الآخرة سنة إحدى عشرة وسبعمائة (711هـ) بالمارستان الصغير، وتقدم المصلين عليه بالجامع الأموي، أبو الوليد المالكي، والشيخ محمد بن قوام، وغيرهما، ودفن بقاسيون، قبالة زاوية السيوفي".[1]

هذا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتب

محمد بن عبد الله أحمد

(أبو الفضل القونوي)

في 21 جمادى الأولى سنة 1426هـ في قونية

---

(1) المقتفي، رقم الترجمة 22 في الجزء الثاني، وقد بعث إلي بها محققه الأستاذ الدكتور الفاضل عمر بن عبد السلام تدمري حفظه الله تعالى.

نص المخطوط :

رحلة الشيخ العابد الزاهد، السالك العارف المحقق[1] عماد الدين، أحمد بن الشيخ إبراهيم الواسطي، وشرح تقلُّباته في عُمُرِه، كُتِبَتْ لمستفِيدٍ مشتاقٍ إلى الوقوف على أحوال أهل العصر، فيعرف بذلك سَلِيْمهم من سقيمهم، ومُعْوَجَّهُم من مستقيمهم، والله – بِكَرَمِه – ينفع بها طالباً نهج الاستقامة، واجتناب أحوال أهل الانحراف والملامة، وذلك بعد مطالعتي لرحلة سلمان الفارسي -رضي الله عنه- في طلب الهدى، وعبوره عليه بعد عناء شديد. وجدتُ بين رحلتي ورحلته مناسبة من بعض الوجوه، فأحببتُ تعليق جُمَلٍ منها أرجو بها النفع للمهتدين إن شاء الله تعالى، وبه التوفيق والعصمة، وهو حسبي ونعم الوكيل.

(1) هذه المديح من الناسخ لا جرم

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبِّ يَسِّر وأَعِن

الحمد لله الذي بيَّن لعباده مناهج سَبيلِه فعَبَدُوه، وتَعرَّف إليهم بآياته وبيِّناته فعرَفُوه، وكَشَف عن قَدْرِه فتوكَّلوا عليه ووثقوه [1]، وظَهَر لِقُلُوبِهم بآثارِ صِفاتِه فأَحَبُّوهُ وأَلَهُوه، وأشهد أن لا إله إلا لله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، الذي وَعَدَ اللهُ عِبادَه بمَحبَّتِه لهم إذا هُم اتَّبَعُوه، صلَّى الله عليه، وعلى آله وأصحابه ما سبَّحَهُ الأمْلاكُ وما قَدَّسُوه، وبعد:

فلَّما كان بيانُ الحقِّ والهُدى، لعباد الله من النَّصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامَّتِهم، لا يَتِمُّ ذلك إلا بِبَيان الانحراف، فإنه لا يُعرَف الشيءُ - غالباً- إلا بضِدِّه، وبالنُّور ينكشف الظلام، وبالشُّعاع يتجَلَّى القَتام، أَحْبَبْتُ أنْ أشرح حالَ رِحْلَتي في طَلَبي، وما لَقِيتُه مِن الطوائف المنحرفة عن نهج الحقِّ والصواب، إذْ في الناس مَن يَظنُّهم مِن أهل الله، وربما يَتَوَسَّل بهم إلى الله.

ليكونَ ذلك لطالبِ الهُدى في آخر الزمان، تَبْصِرةً وبرهاناً، ومعراجاً إلى معرفة مراد الله تعالى من عباده، في مَطالِبهم وعُقُودهم وأحوالهم، ليقوم الطالب بذلك فيلقى ربه تعالى بخالص العبودية، فتَقَرَّ عيْنُه بلقائه، ويُجانِبُ من ظَهَر إنحرافه عن طريقة أهل الحق، ويَعْلَم ماهيَّة أذواق الناس، وحقائق أحوالهم في

---

(1) كذا في النسخة

رأس السبعمئة من الهجرة النبوية، فكثيرٌ من الناس مَن يَخفى عليه حقائق أحوالهم، ويَتَغَطَّى عنه ما أَنْعَمَ الله عليه، حيث أحياهُ في سِتْرِ العافية، وأَوْقَعَه بين **أهل السُّنة والجماعة** مِن طُفوليَّتِهِ إلى سِنِّ شيخوخيته، فهو لا يدري ما أَحْدَثَ الناس، ولا ما يَتَقَلَّبُون فيه من خطوات الشيطان وشركائه ومصائده، ولا يدري ما بدَّلُوا مِن دين الله وشريعتِه.

فيُسْتَفادُ بمعرفة أحوالِ الخَلْق أحوالَ المحِقّين مِنَ المبْطِلين، والناقِصين من الكاملين، والمنحرفين من المستقيمين، ويُتَوَصَّلُ بذلك إلى سُلُوك الحقِّ واجتناب الباطل، ويشكر الله تعالى على نِعَمِهِ والعافيةَ مما أبتلى به كثيراً من خلقه، وذلك بعد مطالعتي لرحلة **سلمان الفارسي** في سيرة النبي ﷺ فرأيتُ رحلتي مناسبة من رحلته فعلَّقت جُمَلاً منها، وإلى الله أرغب في النفع بذلك.

وهذا الفَنُّ من العِلْم حرامٌ على مَن يُريدُ به الوقيعةَ بين الناس، لِنَيْلِ أغراضه الفاسدة، أو الانتصارِ لهوىً متَّبع، وهو مباحٌ بل مُستحب لمن يريد التَّوَقِّي من التَّعَثُّر في الوَرَطات، والوقوع في المزلّات، لا لمن يريد المعاياة والفرقة والمحاكاة فيتخذ ذلك فُرْجَةً وسَمَراً، لا معرفةً وعِبَراً، فيكشف أستارَ الناس بلا نِيَّةٍ صحيحةٍ، **والأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى**، والله الموفق للصواب.

فصل

أَوَّلُ ذلك أنه كان مَولدي ومنشئي بين طائفةٍ مِنَ **الأحمدية**، لأنَّ أبي - عفا الله عنه- كان رئيساً من رؤسائهم، ووزراء شيوخهم، وكان مطاعاً، يقول بالنفع المتعدِّي، من قضاء حوائج الناس، وإطعام الطعام، وردِّ اللَّهْفَة، وذلك هو طريق **الفقراء الأحمدية**، فمنهم من يعامل الله تعالى بذلك، ومنهم من يريد به إقامة رئاسته، وتحصيل قيامه ومادَّتِه، فما عَرفتُ دين الإسلام، ولا فتحتُ عَينيَّ إلا بين قومٍ يتخذون الغِناءَ شعاراً، والرَّقص على القصب والكف قُرْبةً ودِثاراً، والاجتماعَ على الضِّيافات عادةً وإلزاماً، والاجتماع بالأجنبيات معروفاً لا يُنْكَرُ، ومحادثتهن ومسامرتهن مباحاً لا يَقْبُحُ.

لا يعرفون تحريم غَضِّ الأبصار عن [غير] [1] المحارِم، ولا يُفَتِّشون على آداب الشريعة مِنَ الحدود والأخلاق والعزائم. قد أَسْكَنُوا شيوخهم في قُلُوبِهم في محلِّ العبادة، فإليهم يلجؤون في نوائبهم، وإياهم يذكرون عند نوازلهم - الشيخ في قومه كالنبي - ربما عظَّموه فوق تعظيم الأنبياء، من حَطِّ الرؤوس بالسجود، وكَشْفِها بين يديه، والاستجارة من سخَطِه وعقوباته الباطنة الغَيْبِيِّة. يعتقدون أنه يقول ما يشاء، يُميتُ الحيَّ، ويُبرئ المريضَ، ويضربُ بِسَهْمِه من يشاء فيقتُلُه.

---

(1) زيادة ليستقيم المعنى .

ووَجَدتُ فيهم أذكياء، يَعلَمون أنَّ الأمر ليس كذلك، لكنْ حصل لهم بسبب تعظيمهم لشيوخهم رئاسة بين الناس وفتوحاً، فهم يقيمون جاه شيوخهم إبقاء على حظوظ أنفسهم. لا يعرفون الحلال ولا الحرام، ولا الورع عن المحارم والاحترام. يجيء إليهم المحبُّ الطالبُ لطريق الله فيُتَوِّبونَه، ولا يُعلِّمونه حدود الله ولا أمره، وكيف وهم يَجهلونها علماً، ويتركون أحكامَها عملاً ؟ لا يأمرون مريديهم بإتقان العبادات، ولا تحقيق معرفة حدودها، من فرائض الطهارة وسُنَنِها، وفرائض الصلاة وسننها. ويقولون: إذا قيل لكم: ما مذهبُكُم؟ فقولوا: الماءُ والمحراب !!

أبغضُ ما لهم الفقهاء، إلا عند نكاحهم وطلاقهم أو بُيوعِهم، فيحتاجون إليهم لأن أمرهم لا يَنْفُذُ إلا بذلك، ولو أمكن الاستغناء عنهم لاغتنوا، فلا محاسبة في الجوارح، ولا مراقبة في الباطن، ولا مراعاةَ لحدود الشَّرع، ولا حِرْصاً على آداب الرسول ﷺ في عباداته وعاداته، بل يحرصون على سيرة شيخهم الأكبر، مثل حضور مجلس السماع بعد العشاء، يزعمون أن رجال الغَيْبِ تَحْضُرُه، فترى شيوخهم حريصين في ذلك الوقت على الاجتماع، وجمعِ الهِمَمِ فيه، فإذا جاء وقت الصلاة نَقَروا نَقْرَ الغراب، لا يُصدِّق أحدهم متى يَنْفَتِل من صلاته، فيخرج من صلاته إلى السماع، كما يخرج المحبوس من بيتٍ مظلم ضيق إلى الفضاء.

يسافرون بأصحابهم معهم المغاني والرايات، تتبعهم الرجال والنساء، يُقِيمون السماع، وتضرِبُ النساء منطقةً حول الرجال، بارزةً وجوههن، وربما باتَ النساء في مواضعهن رغبةً في الأجر، ولكونه - في معتقدهم - **مَجْمَع الأولياء** فيتعبدون بالمبيت حول الرجال، وفي ذلك الدسائس وقضاء أوطار النفوس، فإذا أقاموا السماع عَمَدَ مُوَلَّهُوْهُم إلى حيَّاتٍ لهم معدَّة [1] في الأكياس، فيستخرجونها ويَقْضِمُونها قَضْمَ الخِيار، وتسيل دماؤها على أشداقهم، ثمَّ يَنفُخونها على الناس يزعمون أنَّ ذلك يستحيل في أفواههم زعفران وفاكهة، ورأيتُ منهم من يأكل الضفادع يُعِدُّها قبل السماع في عُبِّه، فإذا قام الطابق أخرج واحدة وقَضَمها، ولا يُنكِرُ ذلك أحدٌ عليهم، لا من فقهائنا ولا من صُلَحائنا، بل صارت هذه البِدَعُ عندنا سُنة معروفة، وشعاراً ظاهراً، فيحِقُّ لذلك **تَمَلُّكُ التَّتَر** [2] بلادهم واستيلاؤهم عليهم، بل هم طيِّبون في دولتهم، لأنهم معتقدون فيهم، معظِّمون لهم، فهل تقوم الطريقة العمياء إلا في الدولة السوداء ؟ كما لا تقوم الطريقة المنورة إلا في الدولة البيضاء، دولة أهل الإسلام ؟، وربما لم ينقطع أثر الخلفاء في بغداد إلا لكونهم لم ينكروا مثل هذا الأشياء، و[لمَّا] [3] لم يُغيِّروها وسَلَّموها لهم، قطعهم الله تعالى لذلك.

---

(1) في الأصل: معدودة.

(2) هم المغول.

(3) زيادة يستقيم بها الكلام.

أيها السالك، إنْ أردتَ الطريقة المثلى فاعكس هذه الأمور، واعتمد خِلافها تُصِبْ مراد الله منك، فهذا سُلوكٌ لك إنْ فهمتَ، وهو كافيك.

أوَّلُ التوبةِ عندهم - في البداية- الرقصُ وخدمةُ الفقراء، والنهاية عندهم التي ينتهي إليها الطالب ويحصّل الوصول؛ أن يصير للفقير قبولٌ بين الناس، ويصير صاحب أخذٍ وعطاءٍ، [و] من لم يكن كذلك لم يصل، ومن حصل له ذلك فقد كمل، ولهم مع ذلك أمور تكاد تخرجهم من الإسلام، منها:

أنهم كانوا يأخذوني - وأنا طفلٌ - إلى زيارة قُبَّةِ الشيخ فيُمشى في المركب إلى القرية التي هو فيها مدفون - أعني **أم عبيدة** - [1] فإذا لاحَتِ القبة كشفوا رؤوسهم وتضرَّعوا وابتهلوا، وربما بَكَوا وانتَحَبوا، ورَقَّتْ قلوبهم ودَعَوا بحوائجهم، فإذا جاؤوا إلى باب قبة الشيخ كشفوا رؤوسهم، وسجدوا على عَتَبَتِه، وكنتُ أسجدُ معهم في صِغَري، ووقفوا على بابه أذلَّاء وُقوفاً طويلاً، عَلِمَ اللهُ ما يعظِّمون الكعبة كما تُعظَّم قبة الشيخ، بل هناك في الرواقِ ساريةٌ، فإذا رَأَوْا قبة الشيخ - مَن الذي يستجرئ أن يَدْخل القبة؟ - بل فيهم مَن قد شاخَ ولا يدري ما داخِل القبة، ثم يَطُفون سَبْعاً بتلك السَّارِية، فيكون الوقوف على باب القبة كَعَرَفة، وتلك السارية كالكعبة، فيكون ذلك حَجَّاً، لهم كحج الرافضة إلى قبر الحسين.

---

(1) اسم قرية في العراق دفن فيها أحمد الرفاعي

وحكى لي بعض شيوخِهم مادحاً لبعضهم، ومُتَرَحِّماً عليه، أنه: كان يُحْرِمُ إذا لاحَتِ القبة، ويتجرَّدُ من مَخِيط الثياب حتى يدخل القرية، ويقضي أرَبَه من الزيارة، ثم يُحِلُّ من إحرامه، وفيهم مَن لا يَجُزُّ شارِبَيه إلا عند قبة الشيخ.

وأهل الرّواق المجاورين يَتَعَبَّدون برؤية قبة الشيخ كأنها آلهة تُعبَد، فَيَرْمُقُونها بأبصارهم، وتتصاعد لذلك أنفاسهم، ويأنسون أُنس العابد بِمَعْبودِهِ، وكيفَ لا ؟ وهم يرَوْنَ العالَمَ مِن آفاقِ الدنيا يقصدونها بالتعظيم، وحَطِّ الرؤوس والسُّجود لها، ويَبْذُلُونَ أموالهم نَذْراً لها، من الدراهم والشموع وغير ذلك، ومن ذلك أنهم كانوا لا يتحاشون مؤاخاة النساء الأجنبيات[1]، ولا المبِيتَ معهن ولا يتحاشون من مؤاخاة الصَّبي الجميل، ولا المبيت معه، يزعمون أنهم في المبيت لا يصدر منهم زنا، وربما يتخذ الشيخ منهم أخواتٍ وبناتٍ في الله - بزعمه- فينام في جانبٍ وأَخَوَاتُه وبناته - في الله - في البيت في جانب آخر[2]، ثم يُطفِئ المصباح، فمن أراد أنْ يَتبرَّكَ بقَدَمِ الشيخ - يُكَبِّسها - فلا بأس، فإن قَبِلَ الشيخُ إحداهن وضاجعها فلا يُدرى ما يصنع بعد ذلك!! [3]

---

(1) في الأصل: الأجانب

(2) البيتُ هنا الحُجْرَة.

(3) ورد في مصدر فارسي (مناقب أوحد الدين الكرماني) خبر عن على الحريري خلاصته كما ترجمه لي الدكتور ميكائيل بايرام: أن الكرماني دخل حماماً في مصر كان الحريري ومريدوه الصبيان فيه، وأنه رأى تعري الحريري والغلمان حتى من الميازر، وأن صبيانه

يعبدون الطواغيت ويمكنونهم من أنفسهم !

فإذا جاء الشيخ الأكبر إلى مُريدٍ من مريدِيهِ، ممن استخلَفه وجعله شيخاً، فيجيئون أصحابَ الشيخ الأصغر،و يطالبونه بأن يجمع لهم أخواتٍ يسكنون إليهن، فيَجمعُ الشيخُ من نساء أصحابه جمعاً، ويُفرِّقُهُن على أصحاب الشيخ. حدثني من لا أتهمه، **سعدٌ الأكَّال** - يَقَعُ في قواصرَ [1] تمرٍ، فيزعم أنه يأكلها بالحال- وأنه [لما] كان صبياً ينام في عِناقِ فلانٍ -خادم الشيخ **أحمد الكبير**-[2] كأنه يفتخر بذلك وبعناقه له!! فذَكرَ لي - والله أعلم بصدقه مِن كذبه- أنه ليلة من الليالي - وهذا سعدٌ كان يعتقد أنَّ الشيخ **نجم الدين** هو مُدبِّر الأمر، وأنه حيٌّ ما مات، لأنه لو مات لم يَقُمْ أمرٌ !! سمعتُ ذاك من لفظه. كأنه اختفى كما اختفى **المنتَظَرُ** الذي للرافضة، ويَسْتَدِلُّ بهذا أن المضاجعة عندهم غير محرَّمةٍ، يفعلُها البَرُّ والفاجر، فإنْ تنزَّهَ منها وَرِعٌ من وَرِعِيهِم، إنما يفعل ذلك تَنْزِيهاً لا تحريمًا !!.

هذا الذي شَرَحْتُه في حقِّ خِيارِهم، وأمَّا شِرارهم سمعتُ منهم من يقول: إنَّ الصُّندوقَ إذا كان طاهراً - يعنى الصَّدْرِ- فلا يَضُرُّ المِيل إذا كان في المكحلة. وكان يقوله ممازحاً، وهو جِدٌّ في قالَب هَزْلٍ. ومثل هذا الجنس إذا وقع في كَفِّهِ

كانوا يكبسون منه كل موضع حتى العورة المغلظة، وترجم حواراً يستحي المرء من سماعه. انظر الكتاب المذكور الحكاية 67 ص 263

(1) جمع قَوْصَرة أوعاء التمر

(2) هو أحمد الرفاعي

امرأة أو صبيٌ واقَعَهُ فيما دون الفرج، وقضى شهوته، لا أشكُّ في ذلك.[1] هذا إذا امتنعَ عليه، وكم قد أفسدوا من امرأة – وربما حَبَّلوها، ورأيت من حبَلَ منهن من الزنا – وكم أتْلَفوا صبياً أخرجوه عن أبوَيْهِ وحَسَّنوا له الفَقر، فيتَّخِذُونه ولداً كما يتخذون في الشام الحوار، ثم يعانقونه طول الليل. مجده الاجتماع والمعاشرة والاهتمام بالرقْصِ بالغداة والعَشي، وشُغِلَ قلب بعضهم ببعض. يبتلى الصبي بذلك فيُغَيَّب عن قَلْبِه ما يَجري عليه بالليل منهم، فيُصْبِحُ من فِراش أحدهم، فيُقَبِّلْ يَدَ الشيخ ويرقص، ويَعْدُو ويَدُورُ في الطابق يتوارى عن قلبه مخازيهم بالليل ويقولون: السماعُ شَبَكَةٌ!! نعم شبكةٌ لمأْكَلَتِكُم، ورجوعٌ من شَرود إلى شرود.

وحكى لي من لا أتَّهِمه: أنهم كانوا يجتمعون في بيْتِنا؛ الرجالُ والنساء خُلَطاء ثم يُقِيمُون السماع فيأخُذُهم الحالُ، فيَتَعَرَّى الرجالُ عن جميع ملابسهم

(1) هذا الإمام الواسطي، وهذه شهادته وهو شاهد عيان، ولا نشك أن مشاهداته أكثر مما ذكره هنا، ومن جانب آخر هذه المصادر الرفاعية وغيرها تورد من الأخبار ما يؤيده فهذا ابن السراج أورد في كتابه "التفاح" أن شيخاً من هؤلاء أنكرعليه مُنْكِر هذه الإباحية فما كان من الشيخ إلا أن أراه عضوه التناسلي، فرآه المنكِر فرج امرأة. انظر "التفاح" الورقة 161، ويفهم أنهم – أو طائفة منهم- يزعمون لمريديهم أنهم قد أعطوا من الحال ما إن الفحل من الشيوخ ليتحول إلى أنثى بمجرد أن يعانق صبياً أو امرأة. انظر ما ورد في سؤال وُجِّهَ الى ابن تيمية في الفتاوى 2/ 105، و قد توقظ هذه النقول من كان غافلاً من مقدسي التصوف، ممن يدافع عن هذا الفسق والجنون في العصر الحاضر بلا منهج علمي لا غربي ولا شرقي ظاناً أنه يحسن صنعاً.

لِوُرُودِ الحال، وتبقى عوراتُهم باديةً - وهُم باديةٌ - فإذا انطفأ المصباح أخذَ كلُّ فقيرٍ في عناق فقيرةٍ، إلى الصباح [1]، والله أعلم بما كان بعد ذلك[2]، وذلك قُبيلَ أَخْذِ **التَّتَرِ** بغداد بشؤمهم، وكان الشيخ العارف **نجم الدين الأصفهاني** -أعاد الله من بركته- يقول: ما أتلف الدين كطائفتين: **الأحمدية** في النساء، **والحريرية** في الصبيان،[3] وأقول أنا: **والاتحادية** في العقائد أيضاً، **واليونسية** قريبون منهم، وكل هؤلاء أتلفوا الدين وَوَسَّخُوه، وقَلَبوا حقائقه وضَيَّعُوا حدوده واستهانوا به، وأَحَلُّوا حرامه، وبَدَّلوا أحكامه، وانتهكوا حُرُماتِه، طهَّر الله الأرض منهم، وأراح الأرض من أنجاسهم إنه على كل شيء قدير.

---

(1) كانت الجملة في الأصل: "فإذا انطفأ المصباح أخذ كل فقير فقيرة في عناقها". و(إطفاء المصباح) من طقوس الأعاجم ونسكها في أديانها من قديم الدهر،وقد علمنا بما قاله المؤلف أنها بدعة فاجرة تسربت إلى رفاعية ذلك العهد عن طريق القلندرية والملامية ، وكانت هذه المخزية معروفة في الأناضول عند بعض الزمر من غير الرفاعية، وقد سمع بها ابن تيمية أيضاً. انظر الاستقامة 1/ 450

(2) "قال بعض ملوك فارس لشيخ من شيوخ هذا السماع: يا شيخ إن كان هذا هو طريق الجنة، فأين طريق النار؟" انظر الاستقامة 1/ 317

(3) علل محمد بن السراج الدمشقي الرفاعي ميلهم إلى الصبيان بقوله:" إن الصبيان أقرب إلى رؤية النور الإلهي، والإنعمال الكلي للمعنى الرباني،الذي أودعه الله تعالى في أوليائه، وخزنه في قلوب أصفيائه، يعلم ذلك من هداه الله، ويعتقده من أيده الله "!!. انظر تفاح الأرواح، الورقة 126 عند أخبار علي الحريري.

والذي أعتَقِدُه – إنْ شاء الله –أنَّ التَّتَر لم تَسْتَوْلِ على أهل الإسلام إلا بشؤم هؤلاء الطوائفِ وظُهورهم، وعُهْدَة ما هم عليه على شُيُوخهم الأكابر، الشيخُ أحمد الكبير وأمثاله، فإنهم أوَّلُ مَن ابتدعَ هذه الاجتماعات، ولم يَضْبِطوا أصحابه على تحريم النَّظر وغَضِّ الأبصار[1]، وتحريم المراقبة والمحاسبة، وكان لهم نصيب

---

(1) لما كان الشيخ معصوماً – محفوظاً بتعبيرهم – فخطؤه بالنسبة إلى أهل الشريعة هو من صواب الشيخ الذي لا خطأ فيه عندهم، ويفهم أن سكوت شيوخهم عن إنكار هذا المنكر بقي إلى عصر الصوفي أحمد بن شعبان الغزّي (ت 923هـ)، ويعرف بابن شعبان الكتاني الذي صدَّر رسالة له بهذه الفتوى : " ما تقول السادة العلماء، أئمة الدين رضي الله عنهم أجمعين في جماعة من الرجال جهلة، يدعون أنهم صوفية، ويختلطون بالنساء الأجنبيات، ويذكرون معهن، ويختلون بهن وهن سافرات الوجوه، مكشوفات الرؤوس، ويختلون بهن، فإذا أظهرن التواجد في الذكر، وأنهن قد غشي عليهن، فيقوم إليهن رجل منهم، يدعى بينهم بالنقيب، فيحتضنهن، ويضع صدره على صدرهن، ويلامس بدنهن، ويكبسهن، ويعقدون بينهم وبين النساء عقدًا أخويًا، ويدخلون إلى بيوت أزواجهن من غير إذنهم، ويأكلون ما يجدون عندهن من الطعام، الذي هو ملك لأزواجهن بغير إذنهم، ويختلطون أيضًا بالشبان، المرد الحسان، وينامون معهم، ويضاجعونهم، وينظرون إليهم، وينكرون على من يتجنب هذه الأشياء، ويقولون: هذا ضعيف الحال، ولا يفعل هذا إلا الشطار، والفقير لا يغيره شيء. فهل يجوز ذلك في الشريعة، وفي طريقة الصوفية أم لا، أفتونا مأجورين، أثابكم الله الجنة بمنه وكرمه آمين". انظر: تحذير السالك من الوقوع في المهالك للغزي. مخطوطة قونية (الورقة الأولى) .



من ربهم استغنوا به عن تحرير الشريعة، ومع ذلك فهم يقرؤون القرآن قراءةَ مَنْ لم تَبلُغْه عن الله دعوة، ويُعَظِّمون النَّبي ﷺ تعظيمَ مَن لا يَعلمُ بأيِّ شريعةٍ جاء، لا تُجاوِزُ قراءتهم حناجِرَهم، بُكْمٌ عُمْي كالبهائم السارحة، والأنعام الراتِعة، يُنادَوْن من مكانٍ بعيدٍ، ويرون الشريعة من بعيد، يُبْغِضُون القائمين بها - وهم العلماء - بُغضاً ما عليهِ مِن مَزِيدٍ [1]، فما قولُكم - مَعشرَ العقلاء - في طفل لم يفتح عينه إلا بين هؤلاء؟ ولم يعرف دين الإسلام إلا هكذا ؟.

ومن ألطاف الله تعالى بي أن خلق فيَّ غريزةً في حالِ الطفولة كنت أعلم بها أنَّ هؤلاء ليْسُوا على شيء، وأنَّ الحق وراء ما يدَّعُونَه، وكنت أتشبَّث برسالة القُشَيْري [2] وكتاب (القُوْت) [3] و(الإحياء) [4] فأعلم باطلهم علماً في القوة، ولا سبيل إلى ظهوره في الفعل، لأن الدولة لهم، فلا يمكن ظهور ذلك في الفعل

(1) من صور بغضهم أنهم كانوا يدخلون الجامع للصلاة - بزعمهم - فإذا بدأت الصلاة، أخذ هؤلاء في توجيه السباب إلى الإمام في صلب الصلاة مثل قولهم: أنا على بطن امرأة الإمام و كذا وكذا من الإمام، ويصيحون صياحاً عظيماً. انظر ما حكي عنهم في مجموع الفتاوى 11/ 453، 452، 456، 458،461، 462، 474، وتفاح الأرواح الورقة192

(2) صوفي مشهور بكتابه المعروف برسالة القشيري مات سنة 465هـ

(3) يعني: كتاب قوت القلوب لأبي طالب المكي، المتوفى سنة 386هـ.

(4) للغزالي المتوفى سنة 505هـ المعروف باسم إحياء علوم الدين.

أصلاً، وأكابر العلماء المحدثين **كعزِّ الدين الفارُوْثي**[1] من أشياعِهم وأنصارِهم يحضر مجالس سماعاتهم، وحَضَرْتُه - وأنا طفلٌ مراهق - وقلت: قال النبي ﷺ:"كلُّ محدثة بدعة" فكيف حال هذا السماع؟ قال: فتشاغل عن جوابي، ولم يعجبه ذلك. وكان أَنْهى وَرَعِه أنه كان يكره السماع في المسجدِ، وربما حضَرَه في المسجد تقيَّةً ومُدَارةً. رأيْتُه في مسجدٍ يُعملِ فيه السماع، فهذا حال المشايخ المحدِّثين العلماء، فكيف يقومُ الحقُّ المحمدي، والدين الفُرْقانيُّ بينَ هؤلاء ؟ بل كيف يُعَرَّف ويُعَلَّم فضلاً عن قيامه ونُصْرَتِه؟

ومَعْلُومٌ إذا انْطاعَ أهل المدُنِ **لمشايخ البرِّ الفلاَّحِين** فَسَدَ دِينُهم وانقلبتْ أمورهم، وإن كانوا أولياء، وذلك لأنَّ قِلَّة العقل على **أهل البَرِّ** ظاهرةٌ، و لم يبعثِ الله نبياً من **أهل البرِّ قطُّ**، ولا مِن **عرب البادية**، فإذا انطاع أهل المدن للعلماء صَلُحَ أحوالهم، ومتى انطاعوا[2] **لفقراء البَرِّ** فسدت أحوالهم، ثم سرَت هذه البدع من **الأحمدية** في سائر طوائفِ **فقراء البطائح** ومشايخهم، مِن مؤاخاة النساء والصبيان ومصاحبتهم، ومسك الحيّات، ونُزول النار، وغير ذلك من المخازي **فالوفائية** عندنا يَنزلون النار، **والبدرية** - عندنا أيضاً - يؤاخون المردان، وأنسب الطوائف عندنا **الحلوبية**، أصحاب الشيخ **ابن حلوبا**، عندهم شيء من التَمَسُّك لكن

(1) رفاعي من واسط. سكن دمشق وبها توفي سنة 696هـ.ترجم له الذهبي في معجم الشيوخ 2/ 422

(2) أي انقاد له يقال: أطاعه إطاعة وانْطاعَ له كذلك. لسان العرب 8/ 240

الأحمدية الرفاعية كالجرب

غلبتهم طريقة **الأحمدية**، من إظهار شعار السماع بين الخاصِّ والعامِّ، واجتماع النساء على رؤوسهم في السطوح يتفرجون على رؤوسهم وتَهَتُّكهم، **فالأحمدية** كانوا كالجَرَبِ جَرِبَ بهم الناس، واقتبسوا من ظُلُماتهم، وقامت دولتهم أيَّ قيام، فكيف يقوم الدين مع هذه الظلمات؟.

نقد العلماء المقلدين

فصل

ثم انْتَقَلْتُ من هـذه الطَّبقـةِ إلى طبقـةِ **الفقهـاء الـشافعيين** لأتعَلَّـمَ العِلْـمَ، فوَقعْتُ بين طائفةٍ خيرٍ من الطائفة الأولى، عندهم علمُ الحلالِ والحرام، والحـدود والأحكام، وعلم ما يجوزُ وما لا يجوزُ، وعلمُ ما يترتَّب عليـه الثـوابُ والعقـاب، واعتقادُ ذلك وعِلْمُه في تلك الظُّلُماتِ نورٌ وهدىً، فـضلاً عـن العمـل بـه، لكـن القوم فيهم الفقهُ لا غير، وفـيهم مـن يـشارك في أصـول الفقـه، واصـطلاح **ابـن الخطيب** مع تَعْظِيمِه وتبْجِيلِه، والإقرار بأنَّه الأمامُ الأعظمُ، وأنه ركنٌ مـن أركـان الدين، وإذا ذُكِـرَ[ذُكِـرَ] [1] قبـل الإمـام وتُـرُضِّي عنـه، وغالـبُ مـا فـيهم علـمُ خصومات الناس ووقائعهم، فقلوبهم مشحونة بمسائل "التنبيـه"، و"المهـذب"، و"الـوجيز"، و"الوسـيط"، و"شرح الـوجِيز"، و"الحـاوي"، و"اللُّبـاب"، و"العُجاب" **لعبد الغفار**، و"المحرَّر" **للرافعي** [2].

لا يوجد عندهم أصول السنة؛ من علوم الحديث وقواعده، ومعرفة رجاله، وعلم صحيحه من سقيمه، ولا علم معاملة الله بالسُّنة، ولا معرفة عندهم بقواعد الاعتقاد، من طريق الصحابة والسلف الأول، **كالسُّفْيانَيْن، والحَمَّادَين، وابن المبارك، وأحمدَ، وإسحقَ**، وأمثالِهم بل قواعد عقائدهم من أصول المتكلمين

---

(1) زيادة يقتضيها السياق.

(2) جميعها من كتب الفقه الشافعية

صب الرئاسة

بالعقل والنظر. والصالح الورع فيهم المُمْسِكُ عن الخوض في العقائد، ويسلِّم أمر ذلك إلى مراد الله، فيؤمن بذلك إيماناً مجملاً، لا تفصيل فيه، يابسةً طِباعُهم، خالِية قُلُوبُهم عن راوئح المحبة لله، والخوف منه، والتعظيم له، والشوق إليه، لا يُشَم منهم روائح العبودية، ولا الصدق في المعاملة و [لا] الإخلاص فيها، ولا المسارعة إلى البِرِّ بالقصد الصحيح وانشراح الصدر، متكالبين على الرئاسة والمعلوم [1]، مزاحمين على المناصب، تَخرْج نَفْس أحدهم إذا جلس أحدهم فوق مرتَبَتِه، حتى ربما يُنَغِّص عليه طعامَه وشرَابه، وربما وقع فيه بالغِيبة والطعن، فَهُم أوعيةُ فقهٍ وأحكامٍ وخصوماتِ الناس لا غيرَ.

إذا جاءت حكومة فَرَّجوا عنها بما ينقلونه من الكتب لإباحتها، ولا تفتيشَ على أصل هذه المسألة من الحديث، بل إذا وصل الأمر إلى الشرح أو إلى نصّ فلان انتهى الأمر عنده، ومع ذلك فو الله لقد استفدتُ منهم علم ما يجوزُ وما لا يجوز، ومِن العجائب أنني أجِدُ فيهم مَن يعتقد في تلك الطائفة، ويزوره مع علمه بانحراف طريقهم، فاستُدِلَّ بذلك على أنه ليس عنده من النور المحمدي ما ينكشف به أحوال القوم، فبقيتُ معهم برهة من الزمان محبوساً كالطائر في القفص ولا أشُمُّ الهواء إلا من كتب **الصوفية**.

(1) الرواتب المالية

فصل

ثم انتقلتُ عنهم إلى صُحبة **مَطاوِعَة البَغادِدَة** وفقرائهم فوَجَدْتُهُم خيراً من أولئك الأولين بألف طبقة: يُحَرِّمون الحرام، ويحلون الحلال، ويتَمَسَّكُون بمعظم مذهب **الفقهاء** غير أنهم أهل دلوق، ومرَقَّعاتٍ، وشراشح رِقاع[1]، ظراف لطاف، غالبُ هِمَمِهم في الشهوات، من طيِّب الطعام، وحسن اللباس، وهِنْدام الثياب،ومنادمة الأغنياء، ومصادقتهم ومباسطتهم والتواضع الزائدِ لهم، والمزح معهم، واستجلاب رفقتهم، وفتوحهم.

غالبُ حِدِيثهم في نهارهم الخَلاعَة والبَسْط والتَّرَنُّم بالأنغام والقصائد والتطايب عليها، فإذا رَقَصوا فلهم في رقصهم هيئة ظريفة من التَّوقِيعِ على الموسيقى، مثل أنْ يَرَفع رِجلاً ويَحُطَّ أخرى، ومثل أنْ يَتحَدَّبُوا ويَنُطُّوا نَطّاً على ذلك الانْحِداب راكعين. ليس في قلوبهم شيء من الأذواق ولا يظهر عليهم ذبول العبودية، ولا سيماء الخوف، ولا حُرقة المحبة، ولا جمع الهمِّ على العبادة بالقصد الصحيح، ولا يوجد منهم روائح الطلب، ولا يسمع منهم قواعد السير والسلوك والوصول، وقَطْع عَقَبات النَّفْس، ووجدان الأذواق من الطوالع والبوارق واللوائح ولا يُرى عليهم ذُبول الخوف، ولا سيماء المحبة، اللهم إلا في السماع ربما رَقُّوا وخشعوا، فإذا خرجوا عن السماع عادوا إلى تلك العوائد النفسانية

---

(1) أسماء ثياب يلبسها الزهاد

والأوضاع الاصطلاحية، لكنهم أهل تآلف، وتوادد وتواصل وتراحم، وخلق وإيثار، بل غالب ما هم عليه هو ما يظهر منهم من الأخلاق والخلاعة، والترسُّم بظاهر الدين، وفيهم من له وِرْدٌ بالليل وصيامٌ وحَجٌّ، بل غالب مجاهَدَتهم المجاورة بمكة فمَن جاور سنة انتهى سَيْرُه في سُلُوكه.

العاداتُ عليهم غالبة، ونُفُوسُهم عن الحقائق مَحْجُوبة، لم أرَ فيهم ناقداً، ولا طالباً، ولا مَن يُشير إلى طلب الوصول أصلاً. هذا فنٌّ قَدْ ماتَ، وليس الفقير عندهم إلا مَنْ مَدَّ كُسَيرة، أو يُكْرِم الإخوان بالضيافة، أو يَفتح الطابق بالسماع فَتَرِقُّ القلوب له، فيُضَيّف الناس برقة القلوب. هذا أعزُّ أحوالهم وأعلاها، وانتهى الأمر عند ذلك.

يعظِّمون المشايخَ لا كتعظيم أولئك، بل فيهم شُعبة منهم،يكشِفُون رؤوسهم عند قبة ابن إدريس من الصحراء، أو يُقَبِّلون عَتبَة بابِهِ، فعَلتُ ذلك معهم وأنا شابٌّ، إلا أنهم لا يَقَعون في تلك المناجس، وربما عَشِقَ أحدٌ منهم أمردَ على معرفةٍ منه إنَّ ذلك باطلٌ لا يجوز. وإذا رأوا صاحب عبادةٍ ووَرَعٍ لا يَتكايَسُ معهم، ولا يحضر السماع، ولا يطيب فيه، قالوا:هذا يابسٌ ثقيل.

فعاشرتهم، فلم تُعجِبني حالهم، وعرفتُ بغريزتي أنَّ الأمرَ فوق ذلك.

ولا أشمُّ الهواء إلا من كتب **الصوفية**.

فصل

فأَلْقَى الله تعالى في قلبي مَعْرفَتَه وقُرْبَه، وهامَ قلبي بذلك، ولا أعلمُ حقيقةَ ما وَقَع بقلبي، ولا أجدُ من يدُلُّني على مَطْلَبي، ولا مَن يُوقِعني على دَوائي، ولا مَن يُعرِّفني ما هذا الهَيَمانُ الذي وَقَعَ بي، فَبَقِيْتُ مُتَحيِّراً والِهاً لا أجِدُ القَرارَ، وصَدْرِي يَضِيقُ من جميعِ الطوائف التي صحبْتُها وعاشرتُها، وذلك في سنة ثلاثة وثمانين وستمئة (683هـ) أو قريباً منها، فهاجرتُ إلى بلاد **الشام ومصر**، فوجدتُ بها من الطوائف مثل الذين شرحتُ أحوالهم، من **الفقهاء والفقراء والمطاوعة** سواء بسواء، ومع ذلك أجدُ قوماً أهل سيماءٍ حَسَنٍ وعبادةٍ يسيرون إلى صيام الدهر والعبادة، ولا شُعُورَ عندهم بالطَّلَب ولا المطلوب، ولا السَّيْر ولا السُّلُوك. **عُبَّادٌ** صِرْفٌ، أو **فقهاء** صِرْف أو **مطاوعة** صرف. لا أجدُ من يُشير إلى المطلوب أو يُعَبِّر عنه، فَلَطَفَ الله تعالى بي، فوَقَعْتُ في **الإسكندرية** بطائفة عَرَفوا مقصدي ومطلبي، فأنِسْتُ بهم بعضَ الأُنس.

شهِدَ قَلبي بأنْ معهم شيئاً صحيحاً، فإني وجدتهم يشيرون إلى معرفة الذات والصفات والعبودية لله تعالى، وبأي طريق يحصل ذلك، ويشيرون إلى محبة الله تعالى واتباع أمره واجتناب نهيه، والرضا بقضاء الله وقدره، والانجذاب بالهمَّة إليه، وشَمَمْتُ من أنفاسِهم أن هناك قوماً خُصُّوا بالمحبةِ والاصطفاء والتخصيص والتولية، دخلوا في حَضَراتِ الأسماء، وتحقَّقُوا بشيء منها، وأُعطوا

حقيقيةَ اسمٍ أوصفةٍ عَرفوا الله عزَّ وجَلَّ بها، فهامُوا بِحُبِّه، وانقادوا لإرادته، وصارتْ بذلك إرادتُهم تبَعاً لإرادةِ ربِّهم، ثمَّ كَشَف لهم عن شيء من سُبُحات العظَمَة والجلال والبهاء والكمال، والبقاء الأزلي والجمال، فلزم قلوبهم من ذلك الكشف هَيَماناً واحْتِراقاً فَهُم يُراقبون مَشِيئاته ويَرْضَوْن بها، ويراعون أوامره ويقومون بها، وأرواحهم مختطَفَةً بأشِعَّة عظمته وكبريائه، والهةً بِقُربِه، وأعضاؤهم ومفاصِلُهم مُمتلئةً مِن أنواره المخزونة من أنوار جلاله وعظمته، وفيهم من له مكالمة ومحادثة وتعريفات من ربه، يعرفه بها في اليقظة والمنام، وفيهم من له هاتف وتعريف من الإلهام.

ووجدتهم أشدَّ الناس تعظيماً للشريعة والأوامر والنواهي، زاهدين في الدنيا راغبين في الآخرة، محبِّين لله والهينَ بِقُربه، قد رفضوا كلَّ شيء سواه، فلما خَلَتْ قلوبهم من غَيْره امتلأتْ من حُبُّه، ومن كَشْف أسمائه وصفاته، وعظمته وقُدْس ذاته، يَرى أحدهم تَدْبيرَه واختياره من أكبر الذنوب، فهو فَرِحٌ مستبشرٌ بحُسن اختيارِ رَبِّه، مطمئن إليه، ساكنٌ إلى ما ذكره ربه في أزَلِه، على وِفْق حِكمته ورحمته، حتى كأن أحدهم مع ربه، يراه عياناً بقلبه، ويُشرق على وجههِ آثارُ جلاله ومحبته وتعظيمه والانقياد لحُكْمِه، ووجدتُ آثارَ ذلك فيهم وفي حركاتهم وسَكَنَاتِهم وتَقلُّباتهم، فو الله لقد فرحتُ بهم فرحاً شديداً، وسَكَن قلبي إليهم وإلى طريقهم بعض السكون، لأني رأيتُ معهم شيئاً هو غاية الغايات، ومنتهى الطَّلِبات.

ثمَّ إني فَتَّشْتُ على أساس قام من العقائد والأصول، فوجدت القوم لاشعور لهم بالسُّنَّة، ولا الأيام النبوية، ولا السِّير الصَّحابِيَّة، والأخلاق الدينية، ووجدتهم يعتقدون شيئاً من التَّجَهُّم، إلا أني لم أجدهم يُصَرِّحون بالتعطيل، بل ميلهم إلى الوقوف، ولا أَشُكُّ أنهم ينكرون بعض الصفات أو يقفون فيها، كما هو مذهب المتكلمين، ومن ذلك وجدت عليهم كَسْفَةً، وفي لَمَحات وجوهم سَعْفَة، ووجدت هذه الأحوال المذكورة عندهم قد اقتبسوها من شيوخهم، فهم لا يذكرون إلا شيوخهم، لا يستندون فيها إلى الحديث، وإن لم تخالفه لكن مادتهم من أنفاس شيوخهم، وشيوخهم قِبَلُ قلوبهم إليهم يتوَجَّهُون في أحوالهم، وعلى كشفهم يُعَوِّلون، ولا يعرفون ربهم إلا من حيث قِدَمُه وأزليَّتُه، حيث كان ولا شيء معه، ولا يشيرون إلى كشوف القرآن، ولا إلى تجليات الصفات في تلاوته، ولكن مع ذلك وجدت معهم شيئاً وأي شيء، كما قيل:

عـلى مِثـلِ لَـيلى يَقتُـلُ المـرْءُ نَفـسَهُ ... وإنْ كُنتُ مِن ليلى على الهَجْرِ طاوِيا

فحصَّلت بتوفيق الله تعالى ما حصَّلت من فوائدهم، وبركة صحبتهم ضمن ما حصلته من فوائد **الفقهاء اليابسين**، من معرفةِ ما يجوز وما لا يجوز، فصار ذلك كالقالب الجسمي وهذا كالروح، لكن كلاهما يابسان، فقهٌ يابسٌ عن رُطوبة الحديث، ومقابلة النبي ﷺ في الأحكام والأخلاق، وحالٌ يابس عن مقابلة الرسول ﷺ، فقه مقابل **لأئمة الفقه**، وحال مقابل **لأئمة التصوف** والرسول ﷺ له السّكَّة والخُطبة والحُكم، والتوجه إلى غيره، فبقيت كالعائز الذي حصَّلَ أول

الدرجات ولاحت له أعلاها وهو عائز بينهما من الدرج، فقَنِعْتُ بذلك في الحالة الراهنة وتغذى قلبي بذلك من جوعه، فإن الجائع يتغذى مهما كان قوياً.

فصل

فوَقَعْتُ بعد ذلك بين طوائفَ صوفية الرَّسْم، في الرباط، فوجدت قوماً أهل سيماء ظاهرة، وسجادات وهيئة، وأشكال وذُقُون مُسرَّحة، وشيء من الأنوار لائحة، فصحبتهم، فوجدهم يشيرون إلى الذِّكْر والخَلْوة، وتناول المعلوم، والاشتغال بالعبادة، لكنَّني وجدت قلوبهم مشحونة بحركات إخوانهم، لا يطرف بعضهم إنكار أو تطلعاً، وحسداً وغيبة. يقولون: خرَج فلان...، دخل فلان...، رأيته يتحدَّث في السوق مع فلان...، فتوجه كذا. فلان له معلوم كذا، بحيث لا يخلو قلب من يصحبهم عن حركاتهم، إلا نادراً، ومع ذلك فربانيَّة الرسوم في صدورهم يعبدونها، قد استعبدتهم وملكتهم، لا تخلص لهم فريضة لله مثاله:

يتوضأ أحدهم حتى يُصلي لله الفريضة، وهو مع ذلك مُلْتفت إلى الخُدام إنْ تأخر عن الصلاة مع الجماعة في الرباط أن يتكلموا فيه، وإن دام ذلك التخلُّف منه يوماً أو يومين خاف أن يقطعوا معلومه، ولذلك يخاف أحدهم إن فاتته وظيفة العصر معهم، أو وظيفة يوم الجمعة أن يتكلموا فيه، ولو تأخر عن ذلك أياماً قطعوا معلومه، وأخرجوه من بينهم فقط، لا تخلص عبادتهم لله، وكيف تخلص عبادة من يخاف غير الله؟ أو يعمل عملاً لغير الله؟ وإن كان لله فهو مَشُوْب بالنظر إلى غير الله.

يخاف أحدهم بينهم مِن رَثَّة ثيابه أو وسَخِه أن يمقتوه، أو يخرجوه من بينهم، ولذا لا يقدر بينهم أن يلبس عباءة مخطَّطةً إلا سوداء أو بيضاء، فيخاف أحدهم أن يخرج عن هيئتهم، إذ لو خرج لقطعوا معلومه.

وفيهم شيء من طبيعة **التَّتَر** كُلُّ من قام بالرسم قبلوه؛ **اتحادياً** كان أو **زنديقاً**، لا يعترضون عليه، ولذلك - دائماً - يكون عندهم **الصَّدْرِية والعرَبية** [1] مع علمهم بانحرافهم. كذلك **التتر**، كُلُّ من قام بالطاعة قَبِلوه **يهودياً** كان أو **نصرانياً**. ويرون القيام بِذَمِّ البدع فضولاً، ليس من وظيفة الصوفي ذلك، بل وظيفة السكوت والقيام بالرسم، وتناول المعلوم، [و] إذا قام بذلك حَصَل المقصود.

يُعظِّمون - بينهم - ذا الهيئة من صاحب المزدوجة الكبيرة، والأكمام الواسعة والذقن الطويلة خصوصاً إذا كانت بيضاء، كان هو المشار إليه بينهم.

فوجدتُ - قطعاً - [قوماً] لا يقدِر العبد على عبادة الله وحده، لا شريك له بينهم، ولا يجد بينهم لذة الطاعة، ولا الامتلاء من الذكر، ولا استيلاء ربانية الحق على القلوب، ولا وجود ذوق خالص العبودية، ووجدتهم في ظلمة وعماء، لهم صورة بين العالَمِ، وقلوبهم مغمورة برسم العبادة، وشيء يَسِيرٍ من الحقائق، مخلوط بأمثاله من ربانية المخلوقين وأوضاعهم، فاسترحت بينهم من وجه، ولم

---

(1) الصدرية نسبة إلى صدر الدين القونوي(ت672هـ) والأخرى إلى ابن عربي الطائي(ت638هـ).

أسترح من وجه آخر، فالراحة بينهم بسبب الجمعية لصفاء النظر، فإن ذلك إنما يكون بالكفاية والقطع عن الشواغل، وذلك موجود بينهم، فلما صفا العقل والفكر، وأبصر الإنسان مابين يديه، وأراد أن يعبد الله بكمال العبادة وجد نفسه مقيداً بينهم عن النفوذ.

وحدة الوجود

فصل

واعترني في الرُّبُطِ قوم يشيرون إلى المحبة والتوحيد، ويشيرون إليه، ويقولون: فلان موحد، وفلان ما شمَّ من التوحيد شيئاً، ويعظمون شأن توحيدهم، ويقولون: من يصل إليه ؟ ويذكرون شيوخهم **كابن عربي**، **والصدر القونوي**، فبقيتُ مدةً أُفَتِّش على التوحيد الذي يشيرون، فوجدت حاصل توحيدهم أنهم يجعلون الحق تعالى هو الوجود المطلق الساري في جميع الأكوان، وأنه حقيقة الأعيان، من الحيوان والجماد، ويزعمون أن من وصل إلى ذلك شهد الكلَّ في الكلِّ، فهم قوم يقولون: " الله "، والله عندهم هو الوجود الساري، الذي هو ضد العدم الذي سَرَى في كل شيء، فوجدتُ - على ما يزعمونه- أنَّ إلههم الذي هو الوجود سارٍ في الكلاب، والخنازير، والفئران، والخنافس، تعالى الله البائن بذاته وصفاته، عن جميع مخلوقاته، أن يكون بهذه المثابة، فإنهم لا يقولون وجوداً قديماً، ووجوداً حادثاً، بل الوجود عندهم وجود واحدٌ، سارٍ في كلِّ شيء،والعبدُ عندهم لا وجود له، إنما الوجود الذي هو الحقُّ، والحق هو الوجود فيه، والعبد كالمظهر له ظهر الوجود بواسطته،إذ لولاه لم يظهر الوجود، ولولا الوجود لم يظهر هو. وحقيقة معتقدهم أن الباري - تعالى - ليس شيئاً منفصلاً عن الخلق فوق العرش، بل عندهم الحق شيء ظهر في السماوات والأرض، وفي كلِّ شيء ظهر فيه بذاته.

هو مطْلَقٌ تَقيَّد في هذا، وفي هذا، والمجموع شيء واحدٌ، فالوجود الذي قام بالإنسان، والكلب، والنبي، والملك، والسلطان هو وجودٌ واحدٌ عندهم، وهو الحق تعالى، ليس الحق شيئاً زائداً على مطلق الوجود.

هو بعينه الوجود المطلق، الذي تقيد بالإنسان والحيوان، والنبات والجماد، والكلاب والحمير، والبقر والذباب، والحيات والعقارب، فمثاله عندهم كالحرارة المطلقة، التي تقيدت بالأشياء الحارة في كل حارٍّ، على اختلاف أجناسها وأشكالها وأنواعها، هذا حارٌّ، وهذا حارٌّ، فالحرارة شيء واحد، مطلقة فتقيَّدَت بعين هذا الحارّ وكذالك عندهم الحق تعالى، وحدة مطلقة تقيّدت الوحدة بهذا الموجود، وبهذا الموجود رفيعاً - كان - أو خسيساً.

فلما رأيتُهم بهذه المثابة نفَرَ قلبي منهم نفوراً شديداً، ولم أكن أقدر على تفصيل معتقدهم، لكني أسمع شيئاً أكرهه ولا أحبه بفطرتي، فإني وجدتهم مُنْحَلِّين في باب لحلال والحرام والحدود، وربما قيل لي عن رجل منهم: إنه يَبقى جُنُباً أياماً، وربما صلى بنا أياماً.

وإذا قصدوا مِلكاً أو صاحب ولاية، يخاطبونه ويتضرعون إليه كما يتضرعون إلى الله، فإنه عندهم هو مَظْهَرُ وجوده، وإنما يخاطبون الوُجود فيه.

وكان مِن شيوخهم مَن يقول للشُّجاعي - وكان نائب السَّلْطَنة [1]- معروفاً بالظلم والاعتداء - يقول له: أنتَ اسمُ الله الأعظم، وأمثال ذلك.

---

(1) أمير مملوكي قتل سنة 693هـ

ثم الأمردُ الجميلُ - عندهم - في رُتبةٍ عاليةٍ من المظاهر الجمالية الإلهية [1].

والسماع عندهم أشهى شيء، يُحرِّك بَواعِثَهم، ويُثَوِّرُ فيها معارف الوجود المطلق. ويتكلمون على مراتبِ الأنبياء، كأنهم مِن فوقهم. والشريعة عندهم سياجُ نظامٍ لصلاح العالم[2] وإلا فمَنِ العابد؟ ومَن المعبود ؟ الأمر عندهم كما قال قائلهم:

مـــا الأمـــرُ إلا نَـــسَقٌ واحـــدٌ ... مـــا فيـــه مِـــن حَمْـــدٍ ولا ذَمّ

وإنـــما العـــادةُ قـــدْ خصَّـــصتْ ... والطَّبْـــع والـــشارع بـــالحُكُمِ

ووجدت بعد ذلك كتاب " الفصوص" **لابن عربي** دالاً على هذا المذهب الخبيث، في تفصيله بعباراتٍ متنوعة، يقول: ما ثَمَّ غيرُه، ثم يقول: فاختلط الأمرُ

---

(1) قال القاضي الرفاعي محمد بن السراج الدمشقي:"... إن له بداية عجيبة (يعني داود الصمادي)، نحكي ما ثبت منها، وهو أنه لما كان صبيًا، جاء إلى زاوية والده رجل من العجم، فأقام بها ثلاثًا، فقال والده: قل للفقير: ما حاجتك ؟ فسأله. فقال: أريد أن أبيت أنا وأنت في فراش خلوة عريانين، فقال الشيخ يعني أباه: افعل. فلما خلعا ما عليهما خلوة، جعل ظهره إلى صدره، وضمه إليه، ثم خلاَّه، ولم يره بعدها، فسأله والده بكرة، يعني كيف جرت الأمور في الخلوة فقال: لما ضمني أحسست بيده في بطني، وأدارها في أمعائي، وغبت عن نفسي طرفة عين، فقال والده: هذا جاء أعطاك نصيبك". تفاح الأرواح (ورقة 189)، ونقل ابن نوح أن أحد الفقراء، قال لأمرد: أنا أطلبك في السموات، وأنت معي في الأرض !! ". الوحيد في سلوك أهل التوحيد (الورقة 257 -260).

(2) كانت في النسخة (والشرعة عندهم سياجٌ طامٌ لصلاح العالم).

وانْبَهَم، ويقول:

فيعبُـــــــدني وأعبُــــــدُه ويحمــــــدني وأحمَــــــدُهُ

وأمثال ذلك، فَفَصَّلَ بذلك مَذهبَهُم،وعرفتُ به حقيقةَ مقاصدِهم، فتعبت بهم دهراً طويلاً.

فصل

ثم فَتَّشْتُ الحاصل الذي حصل لي في مجموع الطوائف، فلم أجدني انْتَفعْتُ إلا بطائفتين - كما سبق- بالفقهاء مِنْ مَعرفة ما يحِلُّ ويَحْرُمُ، وأنَّ الطاعة مُوجِبة للثواب، والمعصية موجبة للعقاب، واعتقدت ذلك عقيدةً،وذلك خيرٌ كثير، وانتفعت بطائفة الصوفية الإسكَنْدَرانِيِّينَ، عَرفتُ بهم المطلوبَ، وصفةَ الصِّدِّيقين، والواصلين والمحبِّين والمحبوبين، وأحكام العبودية، وصفات المتوكِّلين والراضين، والزَّاهدين والمصطلمين، وذلك - أيضاً - خيرٌ كثير ووجدتُ نفسيَ - كما سبق ذكره - قد حصل لها الدرجة الأولى والعليا، وهي عائزة ما بينهما من قواعد الدين وأصوله وتفاصيل الشريعة من الكتاب والسنة، وأجد جميع ذلك العلم الظاهر، والحال الباطن من الله ورسوله، في كتابه وسنة نبيه ﷺ.

فصل

فلم أزَلْ في هذا العوز حتى لطف الله تعالى بي، واجتمعتُ **بطائفة بدمشق** منَّ الله بهم علي، فوجدتهم عارفين بأيام النبوة، والسير الصحابية، ومعاني التنزيل وأصول العقائد المستخرجة من الكتاب والسنة، عارفين بأذواق السالكين وبداياتهم، وتفاصيل أحوالهم، يرونها من كمال الدين، لا يتمُّ الدين إلا بها، ولا تشبه أنفاسهم أنفاس أهل العصر من **فقهائهم وصوفيتهم**، وما شبَّهتُ أنفاسهم إلا بأنفاس القرن الأول والثاني والثالث، في عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم، وكأني - باجتماعي بهم، ورؤيتهم - وجدت **أبا بكر وعمر وعثمان وعلي**، ووجدت التابعين **كسعيد بن المسيب، والحسن البصري، والربيع بن خثيم، وثابت البُناني**، وأمثالهم وكأني وجدتُ - برؤيتهم - **مالكاً والشافعيَّ والسُّفْيانَيْن والحَمَّادَيْن وابنَ المبارك، وإسحاق، وأحمد بن حنبل**، وأقرانهم، ونظراءهم، فإني وجدتهم عارفين بحقائق العلم الذي أُنزِل من السماء على محمد ﷺ، مسارعين إلى إقامة أوامر الله تعالى، كمسارعة أصحاب رسول الله ﷺ، معظِّمين للدين، مهتَمِّين بإقامته وإظهار شرائعه وشعائره، حَنِقِيْنَ على من هَتَك حدود الدين، أو انتقص شريعة من شرائعه، اعتقاداً أو عملاً، وليست أصولهم أصول المتكلمين، بل أصول عقائدهم على الآيات والأخبار الصحيحة، وأَمَرُّوا الصفاتِ كما جاءتْ بلا تأويلٍ ولا تعطيل ولا تشبيه، وأَثْبَتُوا حقائقها لله كما يَلِيقُ به من الاستواء أو

النزول، وجميع الصفات وظهر لهم - مع ذلك - معارف صحيحة، وأنوار ظاهرة من معرفة الله تعالى، ومعرفة صفاته القائمة بذاته ذوقاً وحالاً، مع العلم والنظر، ووجدت آثارها في قلوبهم عند صلاتهم وأذكارهم ودعوتهم إلى الله تعالى.

يعرفون ربهم مِنْ فوقهم، ويعبدونه كما وردت به النصوص الدالة على أنه فوق العرش، بذاته وصفاته بفوقيَّةٍ تليق بجلاله وعظمته، لا يجعلونه محصوراً في الفوقية، بل كان ولا شيء معه، قبل خلق العرش والأكوان، فلم يكن هناك في الفردانية شيءٌ غيره، فيقال: هو فوقه، فلما أُحدثت الأكوان حَدَثَتْ في جهةِ التَّحْت بالنسبة إلى عُلُوِّه الذاتي، فإنه سبحانه بالذات عليٌّ على كل شيء، ولا يجوز أن يكون سبحانه تحت الأكوان، لاممتزجاً بها، ولا بائناً عنها، وليس تحتها فلزم بالضرورة أن يكون فوقها.[1]

ثم من صفاتهم: يَبْذُلُون أنفسهم وأموالهم في سبيل الله تعالى، وإقامة الدين، يعرفون قدر الدين، وقدر أهل الدين وحَمَلَتِه، والقائمين به، لأنهم أهله وأنصار السنة والحديث، وأعوان الرسول ﷺ، وأعوان دينه، وأركان شريعته. يُوالون مَن والاها، ويُعادون من عاداها، مستعملون مكارم الأخلاق، من الرحمة والتَّوَدُّد،

---

(1) في الأصل: ولا يجوز أن يكون سبحانه تحت الأكوان، لا ممتزجاً عنها، بل بائناً عنها، وليس تحتها لزم بالضرورة أن يكون فوقها.

والإنصاف والصدق، والبَذْل والمواساة، والحلم والصبر، وكظم الغيظ والرحمة للخلق، وإعانة المضْطَّر، وإغاثة الملهوف والشدة على الجبابرة، والكيفية الحادة على الفراعنة، لا يخافون في الله لومة لائم.

في أغلب أمورهم يُحِبُّون في الله ويُبْغِضُون فيه، ويعدلون في الحكم، وينصفون في الوزن، ولا يبخسون أحداً بشرٍّ ظهر منه، بل يَزِنُون خَيْرَه وشرَّه، ويُوفُونَه مَرْتَبَتَه.

أذلَّةٌ على المؤمنين، أعزَّةٌ على الكافرين، يُجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم. صُبُرٌ عِند اللقاء، يتعافون عن الزلة في حقوق أنفسهم، لا في حقوق الله ليسوا بفُظَّاظٍ ولا غِلاظ، ولا سخَّابِين في الأسواق، بل يَعِفُّون، ويَصْفَحون ويحلمون، ويكافئون بالحسنة من أساء إليهم. يحبون السنن ويميتون البدع ويمحقونها.

أهل حُضُوْرٍ في الصلاة، خاشعين فيها لله. يعرفون لمن يصلون، ولمن يعبدون إذا ذكروا في الصلاة صَغُرَ عندهم ما سوى الله، وما سوى أمره في قلوبهم. يتلون كتاب الله ويتدبرونه. أهل الفناء في أمر الله. أفْنَوا ذواتِهم في طاعته، ورضوا بأقداره وأقضيته. الرسول ﷺ نُصْب أعينهم، كلما حدثت حادثة شَخَصُوا بِبَصَرِ بصائرهم نحوه، فيستمعون من سُنَّتِه ما يؤديه عن ربه، فيعملون بذلك. ينفذون أحكامه وقضاياه. قد بذلوا نفوسهم لنفع المتعدي في مصالح الإسلام وأهله، وإصلاح ما فسد من أدينهم في عقائدهم، وأعمالهم

وأحوال قلوبهم.

ورثة الأنبياء. مصابيح الدين. غيظ المنافقين. فرح المؤمنين. غبطة النبيين. بهجة الصادقين. قدوة الصالحين. أئمة المقتفين. نور أهل الأرض وسراجها.

بهم عُرِفَ الدين وحقائقه، وعُرِف السلف وطرائقهم، كأنهم قد صحبوا الصحابة، فما أشبههم بسَمْتِهم وذُلِّهم وبَذْلِهم. والذي أعتقدُ فيهم أنهم لا يعجزون عن شأن الصوفية الذين وجدتهم **بالاسكندرية** في حقائقهم وأحوالهم، لكن شَغَلَهم عن ذلك الاصطلامِ الاهتمامُ بمصالح الدين والإسلام - هذا وإن كان أولئك أصحابي - شغلاً عظيماً بربهم. قد هامت به قلوبهم بَهْتَةً وتعظيماً وإجلالاً، لكن من هو في إقامة الدين، وإظهار شرائعه وشعائره، لا يليق به أن يَصْطَلِمَ كاصْطِلامِ أولئك الذين لم يبقَ لهم متسع إلا خالقهم، ولو تفرغوا عن الاشتغال لتفرغهم لم يعجزوا عن مقامهم، ولم يقصروا عنهم، إن شاء الله.

لكن الشغل بجزئيات الشريعة، وإقامتها مع انصراف الهمِّ الشديد إليها، يُوجِب أن تبقى عن المقيم لها، والمهتمِّ بها بقية من طبعه ونفسه وبشريته، لِيُقابل النفوس بها، لأن مَن قابل شيئاً اقتضى أن يكون بينه وبينها نسبة، ولولا النسبة التي بين الأنبياء والعالم، لم ينتفع بهم أحد، إذا لو واجهوهم بما هم به من قرب الله تعالى، لم تقدر العامة أن تفهم عنهم شيئاً، لكن جعل الله تعالى بينهم قدراً مشتركاً ليحصل بذلك الانتفاع منهم، فكذلك هؤلاء لا يصلح لهم تذويب النفوس

بالأصالة لأنهم يحتاجون إلى قوة غَضَبِيَّة يقيمون الحق بها، أو حالة طبيعية يُمازِجون أهل الطباع بها ليستوي بواسطة تلك الممازجة أمرُ الله ودينه إليهم، وربما يورد بعض محبي مشايخنا ويقول: أنت ذكرتَ عن مشايخنا أنهم عارفين وذكرت عن أولئك أنهم عارفين أيضاً، فاشترك الجميع في المعرفة فما وجه الخصوصية التي لأولئك وليست لمشايخنا؟

فنقول: تلك الخصوصية أنَّ لهم كيفيَّة حادَّة، يُؤثِّرون في الطالب بمجرد الرؤية وسماع الكلام محبة لله والانجذاب إليه والإرادة له ونسيان ما سواه وهذه الخصوصية لهم ليست لغيرهم.

وجه ثانٍ وهو أنهم إذا رُؤوا ذُكِرَ الله، وصل نوره بحدة وقوة إلى قلب الرائي، ومشايخنا إذا رُؤوا ذُكِر الدين والسنة والشريعة، فأولئك اندرجت الشريعة في حالهم اندراجاً لظهورهم بكيفية المعرفة، وهؤلاء اندرجت المعرفة في حالهم اندراجاً لظهورهم بكيفية الشريعة، ومجموع هؤلاء العلماء أفضل من انفراد أؤلئك بتلك الخصوصية، لاحتوائهم على الأصول الصحيحة والفروع، بل تلك الخصوصية أقوى وأثبت، وأمكن في الأصول والفروع، وقلوبهم أنور، لأنها مُنوَّرة بالكتاب وفهمِهِ، وبالسُّنةِ ونورها، ومن ذلك اقتبستْ عقائدها ومشاهدها وعلومها وأحوالها، وهم أقْوَمُ بالدين مِن كُلِّ من رأيتُه في عصري هذا، في رأس السبعمئة من الهجرة النبوية، وأتبع لسنة رسول الله ﷺ، من كل أحد، فإنهم يمشون على حَذْوِهِ وطريقته، كأنهم من أصحابه الذين رأوه وشاهدوه، وشاهدوا أيامه ووقائعه ومغازيه، فهم يحرصون على حَذوِ طريقه وآثاره، وهم أشبه الناس

بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وأتبع الناس في هذا الزمان لهما، وأولئك الصوفية وجدتهم أحدّ قلوباً وأقوى اصطلاماً وأشد اشتياقاً وأعظم بالله وجداً، وأتمُّ زهداً وفراغاً، عما يشغل القلوب عن الله، فإنهم أفنوا نفوسهم في الطلب، فقوبلوا بالأمر الكلي، وهو حال له حدة وصولة، ليس كحال غيرهم، أنوار مع انشراح الصدور بالله وبدينه، وأحوال أولئك مطالعات خاصة حادة موجبة لجذب الأرواح إلى مواطن القرب، بتقرب خاص، ليس لغيرهم كما أنه أعظم بأمر الله علماً وعملاً، وذلك- أيضاً - من تعظيمهم لله تعالى والوجد، لكن لكل قوم خصوصية، لا تُجهل، ولا يُظلمون بِطَرِحِها في مقابلة فضل غيرهم، ولذلك فأولئك الصوفية أقوم على سياسة الطبيعة وتصفيتها من أخلاقها، وأقوم على الخواطر وزمها، فإنيَ - كما شاهدته والله أعلم بحقيقة ذلك منهم - شبهتهم بالملائكة في حضرة الله تعالى، الحافين بعرشه وإن لم يشبهوهم من كل وجه، ولا تعجب فإن قلوبهم بين عساكر الأولياء حول العرش فانقلبت طباعهم في أغلب أحوالهم عن البشر إلى الملائكة، وهذه خصوصية لهم، لا تنكر، ولا يقدر غيرهم أن يقوم بها، فإن نفوسهم متعلقة وطائرة،وأبدانهم نَحِلَةٌ بالية، وأكبادُهم مشتاقة محترقة، قد ملكهم الوجد بالله، واستولى ذلك على أعضائهم، ومفاصلهم، فأعضاؤهم ممتلئة بحب الله، محشوة بأنوار قربه، تلوح عليهم بهجة المحبة، وسيماء المعرفة وعَرف الوجدان كما قيل:

أشــمُّ منــك نَــسِيماً لــستُ أَعرِفــهُ أظـن ميتـة جـرَّت فيـك أردانـا [1]

وهؤلاء- شيوخنا- شبَّهتُهم بخلفاء الرُّسُل، حيث شبهت أولئك بالملائكة، فشبهتهم بورثة الأنبياء، بل فيهم نسبة من الأنبياء، لقيامهم بدين الله تعالى ونصرته، والذَّبِّ عنه باللسان والقلم والجنان، والحرص على إقامته حيث ارتضاه الله تعالى لنفسه، وهذه خصوصية لهم لا تنكر، ولا يقدر غيرهم من أولئك الصوفية على القيام بها.

مثال الخصوصية التي عند الصوفية وليست عند غيرهم؛ كمن يريد كيفية مذهب مالك وتفصيله، فإنه لا يجد ذلك إلا عند أصحاب مالك، ولو طلب الطالب ذلك من شيوخنا، لوجد عندهم مذهب مالك معروفاً، بلا تلك الكيفية بل هو عندهم ضِمْناً وتَبَعاً، والطالب لا يُغْنِيهُ إلا الكيفية، فكذلك طالب حقائق التصوف، لا يجد تلك الكيفية إلا عند أهلها، ويجدها عند شيوخنا الفقهاء مفرَّقةً ضِمْناً وتبعاً لعلمهم.

والكيفية الصوفية إذا حصلتْ لا تُغْني بغير قواعد شيوخنا، لأنها أصولٌ لها تحفظها، وإلا فتبقى تلك الكيفية مقطوعة، لا أساس لها، فالحمد لله الذي تمَّمَ لي رِحْلَتِي، وجمع لي مطلبي، في لقاء من يكمل به ديني، وعِلْمَ طريقي وحالي.

وجَدْتُ أولاً مَن عَبَّرَ عن الحلال والحرام، ثُمَّ عبّر عن حقائق المطلوب

---

(1) البيت من قصيدة للشريف الرضي. الموسوعة الشعرية

وهيئة الوصول، ثم من عبّر عن الأصول الشرعية التي هي أصول العقائد والأعمال والمشاهد والأحوال.

فأرجو من كرم الله تعالى أن يوفقني لِسُلُوكِ طريقةِ هؤلاءِ العلماء، في أصول ديني وعقائده، وأعماله وأحواله، وأن يُحَقِّقَني بحقائق إخواني الصوفية من التَّحَقُّقِ بحقائقِ القُرْب، ومراتب الوصول والحظوة بالمَحْبُوْبِيَّةِ، والاختصاص والاصطناع والتولي [1]، والى الله تعالى أرغب أن يحشرني على هذا العِلْم والاعتقاد والعمل، متصلاً بهذا الحال الصوفي، فيكون صاحبه ممن تَمَّ حاله وكَمُل، وأن يُعِيْذَني من صُحبة أولئك الأولين في الدنيا والآخرة، وإيَّاه أسأل أن يهديهم أجمعين، ويُخرجهم عن سبيل العَمِين إلى سبيل الذين أنعم عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين، وأن يعفو عنا أجمعين، والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

---

(1) في النسخة: التولة.